الباب الرابع

مجتمع المدينة

الباب الرابع

مجتمع المدينة

"لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء"

المجتمع هو الوجه الخفي أو الجانب الخلفي لصورة العالم الذي يعلمه ويتعلم عليه، ففيه تنبت الشجرة، وتتجلى ملامح الصورة، وكان مجتمع المدينة في عصر مالك يعيش في مواريث مجد ودين وحسب ونسب، وأموال تخوفها الإنفاق والشقاق مع العاصمة، فأصيب بالضيقة والفاقة، وتعالى الشامخون كالقمم وإن اخترمهم الدهر. وآثر المؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، كل أولئك مع التواصل والتراحم والسلام فيما بينهم، وهي بعض خصائص المجتمع الإسلامي.

وفي خواتيم القرن الأول ولي إمرة المدينة عمر بن عبد العزيز فأعاد ذكر جده عمر، ولما عزل ارتبط فكره بالمدينة ارتباط عقل ودين، فلما آلت إليه الخلافة على رأس القرن اتخذها طريقا إلى الجنة. فابتغى الوسيلة لإنصاف المدينة، والأمة، ثم عادت المدينة بعده إلى العيش الرمق، وكان مالك بن أنس طفلا يغشى حلق الفقه، وفي أذنه شنف، وفي مسمعه طنين من سيرة عمر، ولجده وعمه بعمر عهد، وسيكون بين منهاجيهما وشيجة جامعة.

هذا موضوع الفصل الأول من الباب الحالي. وفي الفصل الثاني وقائع مركزة موجزة ترمز إلى خصائص هذا المجتمع، دون أن تؤدي إلى تيهاء، فيما ازدهر فيه من شعر، واستطار من غناء، استمع إليه الكبراء، وما نسب من الغناء إلى عمر بن عبد العزيز ثم إلى أشهر فقهاء المدينة في القرن الثاني وما بعده: مالك بن أنس.

الفصل الأول

مجتمع المدينة

الحلقة عالمية الطابع لكن الشيخ "مدني" فقط من قمة الرأس إلى أخمص القدم، بارح تلاميذها بلدانهم إلى بلده يمثلون أصقاع الجماعة الإسلامية لا يكاد يتخلف منها صقع واحد.

أما الشيخ فلا يبرح بلده إلى أي بلد – إلا كما يبرح الحاج، إلى مكة، والشيخ عندئذ لا يبارح بلده فالحجاز إقليم واحد. والتلاميذ يتوافدون لينهلوا من المورد الذي لا مورد مثله: مورد المدينة.

كان مجتمع المدينة مجتمع الدولة الإسلامية مذ كانت الأولة من عواصمها، ثم ظلت عاصمة عواصمها، وظل فيها سروات وأشراف، إلى جوارهم موال وعبيد، فيها الأغنياء والفقراء والمتعلمون والعمال، والشعراء والنساك، وأصحاب المحبون وأصحاب الغناء، وفيها النساء العظيمات كالرجال العظماء، وفيها من الأسرة الحاكمة وفيها خصومها، وبنو هاشم وبنو الصحابة إلى جوار بني أمية وبني العباس، وفيها العرب الأصليون، والفرس والروم والمصريون والأفارقة، والعراقيون والشاميون.

وفيهم ثلة أوتيت سعة من المال وقلة أوتيت بسطة من العلم.

وعاشت الحلقة بداية دولة ونهاية دولة، وعاش مالك ختام القرن العظيم وأكثر القرن الذي يليه، فرأى رأي العين كيف يغير التاريخ وجهه، فيقلب صفحة بعد صفحة، من سقوط بني أمية إلى صعود بني العباس، ومن بطش الولاة بالمدينة، والخلل والمسغبة اللذين يصحبان الهزيمة، إلى دخول الخوارج، وخروج العلويين، مرة بعد أخرى، ومصارعهم مصرعا مصرعا، كل أولئك رآه مالك واحتفظ بالنظرة الفاحصة لنفسه دون أن يشغب على الخلفاء أو ينفصل عن العمة.. وكان في قمته العالية قد رقى إليها درجة درجة، فبلغ الذروة، ثم غدا، هو بالمدينة شيئا واحدا، تتلاقى فيه علومها جمعاء وتاريخها كلها.

تفردت عاصمة الإسلام في معزلها عن الحواضر الأخرى بطراز من العلاقات التي تتابعت في القرنين، فكانت دمشق في إبان حكم بني أمية تحكمها بالحديد والدم، وترتجي

رضاها، دون أن يحسب طغاتها حسابا لقول الرسول: "لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء" فكانوا ينماعون واحدا إثر واحد وإن أرسلوا إليها يوما رأس زيد بن علي لتصلب فيها.

وكانت مكة في خلافة ابن الزبير مقرا له فلفها معها في رداء واحد، فذاقتا معا مرارة العلقم، وصعقات الحجاج وعبد الملك، ثم غزاها الخوارج واسترهبوها وذبحوا بنيها.

أما بنو العباس فمدوا إليها بكل سبب من اليسر والمهادنة فلم تهادن، بل راحت تثور مرة إثر أخرى، فبطش بها أبو جعفر البطشة الكبرى، وأرسل إليها رأس علوي آخر، محمد بن عبد الله بن الحسن

وأخذ أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، فقضت المدينة أياما حسوما نحسات، تصب الأذى على الناس في الأرزاق، وكان أكثرهم أعطيات من الخلفاء، وحقوقا في بيت المال تصلهم أو تنقطع عنهم إذا رضى الخلفاء، أو طووا كاشحين، أو أقبلت الأيام، أو أدبرت، وكانت عيشة جمهرتها في الجملة عيشة ضنكا. ولم تكن حياة سرواتها حياة مترفة بل كانت أدنى إلى الخصاصة منها إلى البلهنية والراحة.

لقد انقضت مائة عام أو أكثر على الأيام التي حكمت فيها المدينة العالم كله، وجبيت إليها أموال الإمبراطوريتين اللتين كانتا تتقاسمان خيرات العالم. وعمر بن الخطاب في مسجد الرسول يجلس حيث يجلس مالك بن أنس الآن. تزدحم ساحته بالأموال حتى يبكي عمر خوفا على المسلمين من فساد أنفسهم بالمال ولا يدري من كثرة المال: أيحثو لهم أم يكيل لهم بالصاع، ويسارع في تفريقه حتى لا تتأخر الحقوق عن ذويها.

روى سعيد بن المسيب: لما قدم عمر بأخماس فارس قال: "لا يجنها سقف تحت السماء حتى أقسمها بين الناس" فأمر فوضعت بين صفي المسجد، وأمر عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم فباتا عليها، ثم غدا عمر فأمر بالجلابيب فكشفت عنها، فنظر إلى شئ لم تر عيناه مثله من اللؤلؤ والجوهر والذهب والفضة، فبكى. فقال له ابن عوف: هذا من مواقف الشكر فيما يبكيك؟ قال: أجل. ولكن الله لم يعط قوما مثل هذا إلا ألقى العداوة والبغضاء بينهم.. ثم قال: أنحثو لهم أم نكيل لهم بالصاع؟ ثم أجمع رأيه أن يحثو لهم، فحثا.

وفي عصر معاوية باع حكيم بن حزام بن خويلد (ابن أخي أم المؤمنين خديجة) دارا له من معاوية بستين ألفا فقيل له غبنك معاوية فقال: والله ما أخذتها في الجاهلية إلا بزق خمر، أشهدكم أنها في سبيل الله. فانظروا أينا المغبون.

وفي عهد عثمان بيعت جارية بوزنها دراهم كما يقول ابن سيرين وبيع فرس بمائة ألف درهم ونخلة بألف درهم لأن المال كثر في أيدي القادرين على الشراء.

وفي العهد ذاته تخارجت إحدى زوجات عبد الرحمن بن عوف الأربعة على ثمانين ألف أو مائة ألف.

وتناقل الناس أحاديث مواكب عائشة بنت طلحة وهي تحج في القرن الأول فتزري بموكب زوجة الخليفة عبد الملك بن مروان، بنت الخليفة يزيد بن معاوية.

لكن أموال عائشة لم تكن من بقايا ميراث طلحة بن عبيد الله، وقد تأثرت بالميراث والأحداث، قدر ما كانت أموالا وافدة من بعيد، لقد مهرها زوجان كل منهما ألف ألف درهم، أما بنتها نفيسة فقد تزوجها الخليفة الوليد.

والمدينة واحة في قفر، والرزق نزر، والزرع سقيم في الصحارى الساخنة، قال عمر في إحدى خطبه: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النعجة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك.

أما من عظم عطاؤه أو ثراؤه، أو كانت لهم تجارة في موسم الحج أو غيره، مع البلدان البعيدة فكانوا يستبقون الخيرات، ويؤثرون على أنفسهم فيحملون هموم الكثرة الكاثرة، ممن لا يجدون إلا جهدهم، وأفرغ الله صبرا على من لا يجدون، ولم يكن الأمر غمة على آخرين، فصاروا يستدينون في انتظار ورود الأعاطي: كعطاء رجل ريش معاشه وفشا رياشه ينال الجميع من عطائه: ذلك عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[١٨].

---

(١٨) سأله يزيد بن معاوية يوما:كم عطاؤك؟ قال: ألف ألف درهم. قال يزيد: قد أضعفناها لك قال عبد الله: فداك أبي وأمي. وما قلتها لأحد قبلك. فضاعف يزيد عطاءه ثانية. وخرج عبد الله. وقال الخليفة جلساؤه: تعطي رجلا واحدا أربعة آلاف ألف درهم! قال لهم: ويحكم، إني أعطيتها أهل المدينة أجمعين، فما يده فيها إلا عارية.

وكان زين العابدين – علي بن الحسين – من مصادر الرزق المجهولة في المدينة، كان ناس من أهلها يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم! فلما مات تفقدوا كل ما كنوا يؤتون به في الليل!

* * *

مضى قرن توزعت فيه الثروات، وغلقت فيه أبواب السعي للرزق، وأمسى أهل المدينة سواسية في مستواهم إلا من انتعش وارتاش من حواشي الحكام مباشرة أو غير مباشرة.

وتطورت السجايا في الأسر، مثل تطور الزمن.

كانت غلة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه كل يوم ألف درهم واف، وسخاؤه يفوق الخيال، ثم مضت أجيال، فعاتب الناس حفيده محمد بن عمر في بخله! وكان قاضيا على المدينة لأبي جعفر، فقال: لا أحيد عن الحق ولا أذوب في الباطل.

وجرت أحكام الفقر على مالك بن أنس كما كشف الستر عنها أبو جعفر المنصور يوم وعظه مالك، في أحد لقاءاته، بتفقد أحوال الرعية، قال الخليفة: أليس إذا بكت ابنتك من الجوع تأمر بحجر الرحى فيحرك لئلا يسمع الجيران؟ فقال مالك: والله ما علم بهذا أحد إلا الله! قال أبو جعفر: فعلمت هذا. ولا أعلم أحوال رعيتي؟

وهاجرت الدولة في دمشق شباب قريش. وحجرت على أشخاصهم أن يبرحوا الحجاز إلا بإذن، فانقلبوا يلهون، وانطوى الفارغون منهم على أنفسهم، ينشئون مجتمعا خاصا بهم، كله المحنة والصبر والترقب.

وتراحم الناس وانقطعت الشحناء بين المضطهدين، فوجدنا أبناء الأعداء، أصدقاء في البأساء والضراء، ووجدنا سكينة بنت الحسين بن علي يبني بها مصعب بن الزبير ثم يبني بضرة لها هي عائشة بنت طلحة! هكذا يجتمع علي وطلحة والزبير بأبنائهم أروع اجتماع، وهذا مثل من عشرات[١٩].

---

(١٩) إليك أمثالا أخرى تحوي معاني كبرى: فاطمة بنت الحسين بن علي تتزوج من عبد الله بن عمرو الأكبر بن عثمان ويكون لأبنائها منه أسماء الرسول وأبنائه – أو أم إسحق بنت طلحة يتزوجها الحسن ثم الحسين ابنا علي يتزوجان بنت طلحة! أو حفصة بنت محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أمها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير. وأم عروة أسماء بنت أبي بكر وأبوها محمد أمه فاطمة بنت الحسين وأم الحسين

وصهرت المدينة مجتمعها وأذابت خلافاتها، ورفعت أبناء الصحابة إلى أماكن الشرف في مناصب الشرطة والفتيا، والقضاء. فكان منهم كبار الرواة، والمحدثين والفقهاء وكان منهم عظيمات النساء. فالمرأة العظيمة ينتجها المجتمع العظيم. وناهيك بأمهات المؤمنين – عائشة، وأم سلمة، وميمونة، والباقيات وأخريات من مثيلات أسماء[٢٠] بنت أبي بكر وسكينة[٢١] بنت

فاطمة بنت الرسول، وأم فاطمة بنت الحسين أم إسحق بنت طلحة وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب. فهذا رسول الله وستة ممن بشرهم بالجنة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير. منهم أربعة قد اختلفوا وثلاثة قد اقتتلوا، لكنهم اجتمعوا على رأس أسرة واحدة، يدخل فيها عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، والحسين بن علي وأسماء بنت أبي بكر. ولما زحم الحجاج بن يوسف في معترك النبل فتزوج من أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر، قال سعيد بن المسيب إن أبها لم يزوج إلا الدراهم... وأبرد عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يذكر، تجاوز قدر، ويأمر، بتسويغ أبيها المهر وتعجيل طلاقها. فما بقى أحد إلا سر، ذلك، وتزوج زيد بن عمر بن عثمان سكينة بنت الحسين بعد طلاقها من الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان، ثم طلقها زيد فبنى بها مصعب بن الزبير ثم تزوجها بعده عبد الله بن عثمان بن حكيم بن حزام ثم تزوج سكينة إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف. كذلك نجد أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر يتزوجها عبد الملك بن مروان ونجد ميمونة بنت (علي زين العابدين) بن الحسين يتزوجها المهدي وأختها أم موسى يتزوجها عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ثم يتزوج بعدها أختها أم حسن.

(٢٠) أسلمت مع أبيها، وخاطرت بنفسها، لإخفاء هجرته مع الرسول وبعد نحو من سبعين عاما بايعت الأمصار ابنها عبد الله وحاربه على الخلافة مروان ثم ابنه عبد الملك وحاصر، الحجاج بمكة وخذله الناس وكان يعبر السنين إلى السبعين، فذهب إليها وقد كف بصرها فقال: لم يبق عندي إلا اليسير ومن لا دفع عنده أكثر من ساعة من النهار. وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا، فما رأيك قالت مقال بناة الأبطال: إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه. فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية، فيتلعبوا بك. وإن قلت إني كنت على حق ولما وهن أصحابي ضعفت نيتي، فليس هذا فعل الأحرار ولا فعل من فيه خير. يا ابن الزبير كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقنع به.

(٢١) كانت سكينة برزة تستقبل الشعراء والفقهاء وتتذوق الشعر. زارها الفرزدق بالمدينة فقالت له: من أشعر الناس؟ قال: أنا – قالت بل جرير حيث يقول... فعاد لها من الغد بشعر جديد قالت بل جرير حيث يقول... وكذلك صنعت في اليوم الثالث.

ولما أنشدها الغريض مغنى مكة قصيدة عمر بن أبي ربيعة ومطلعها:

ألمم بزينب إن البين قد أفدا قل الثواء إذا كان الرحيل غدا

طلبت إليه أن يغنيها لها، فلما غناها قالت: أحسنت والله وأحسن عمر وأمرت له بكل بيت ألف درهم وقالت لو زدنا عمر لزدناك.

الحسين في العلم والعمل. وكان كثير من النساء يتعلمن. قالت عائشة: "نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين" وكان النبي يعقد لهن مجالس يعلمهن.

وشغلت المرأة العاملة مكانها في المجتمع: منهن من تحترف حرفة وأكثرهن يعملن في بيوتهن. ومن السابقات زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود الأستاذ الأعلى لأبي حنيفة. كانت امرأة صناعة تنفق على زوجها وولدها قال لها النبي: "لك في ذلك أجر ما أنفقت عليهم فأنفقي عليهم".

وتزوجت أسماء الزبير بن العوام، وليس له مال، فكانت تعلف فرسه وتدق النوى لبعيره وتسقي له الماء وتنقل النوى على رأسها من أرض له على مبعدة ميلين.

وتلألأت كواكب المجد في شخصيات رفيعة المقام، في نسق واحد، بالعلم والورع، والجود والزهد: كالحسين بن علي، وابنه علي زين العابدين، وابني زين العابدين الإمامين زيد ومحمد الباقر، وابن الباقر الإمام جعفر الصادق أستاذ مالك، يمثلون جلال بني هاشم، وتراءى كذلك بنو تيم وبنو عدي رهط ابن الخطاب مفخرة للأمة.

وكهيئة هؤلاء كان بنو عبد الرحمن بن عوف إبراهيم وحميد وأبو سلمة.. وبنو الزبير عبد الله وعروة، ثم بنوهم.

وكان لبني أمية قسطهم في مجد المدينة كأبان بن عثمان وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز، وإن هم فصلوا عن المدينة بعد موقعة الحرة، مخلفين أعظم الذكريات، ففيها ولد عبد العزيز وعبد الملك ابنا أمير المدينة، مروان بن الحكم، وفيها ولد أعظم رجل عند الله والناس في دولة بني مروان: عمر بن عبد العزيز، لتكون ولايته على المدينة آخرة أيامها العظيمة، فترتبط بمالك بن أنس قدر ما ترتبط بالمدينة وسننها وتاريخها ومجتمعها، وبعائلة مالك.

عمر بن عبد العزيز والمدينة

كان عمر مثلا تضربه السماء للناس. فيه من صميم دنياهم وفيه من عظيم هداها، وهو من مواليد المدينة في سنة ٦٢. حفيد لمروان بن الحكم وعمر بن الخطاب معا. أبوه عاهل مصر وأفريقية عشرين عاما، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، نشئ في النعمة

وسنرى بعد أمثالا من تذوقها للشعر.

والحلية، وتناهت إليه أموال بني أمية، مواريث وهبات، أما من الجانب الآخر فقد ورث سمات وصفات لجده عمر.

ولي أبوه مصر لأخيه عبد الملك فدعا إليه زوجه فرأى عمها عبد الله بن عمر أن تدع ابنها بالمدينة ليتعلم، وكان له في أفئدة بني عمر مكان. أن كان أكثر الناس شبها بأبيهم عمر، وسر أبوه لبقائه هنالك آصرة يدلي بها إلى المدينة، وسر عمه الخليفة، فأجرى عليه من مال الفئ في الشهر ألف دينار.

فلما بلغ أشده زوجه من بنته فاطمة.

وصعد عمر مراتب الفقه حتى مرتبة شيخه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة فبلغ مرتبة الاجتهاد مثله.

وفي الخامسة والعشرين ولاه الوليد بن عبد الملك أميرا على المدينة ليصلح ما أفسده هشام بن إسماعيل بشدته على بني هاشم، وليصبح عمر آخر من أقام بالمدينة من الخلفاء الراشدين، وكانت تتيه على العالم بأعمدة العلم السبعة المسمين بالفقهاء السبعة فانضاف إليهم "الأمير" فقيها ثامنا.

وكان وهو أمير، يقصد إلى عبيد الله، فربما حجبه، وربما أذن له. كما روى أبو الزناد حتى إذا صار خليفة كان يتلمس عونه الفكري فيقول: لو أدركني عبيد الله ووقعت فيما وقعت فيه لهان علي الأمر.

فلما ترك المدينة إلى الشام كان فقهاؤنا يستفتونه. قال ميمون بن مهران: أتينا عمر فظننا أنه يحتاج إلينا فإذا نحن تلاميذه، أو كما قال مجاهد (١٠٣) أتيناه نعلمه فتعلمنا منه.

استوثق عمر لنفسه وللمدينة قبل أن يليها فقال للخليفة: "إنك استعملت من كان قبلي فأنا أحب ألا تأخذني بعمل أهل العدوان والظلم والجور".

قال الوليد: "اعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا درهما واحدا".

ولي عمر الإمارة فأخذ الناس باليسر والنصفة، وأقام الحدود، وعمل بمشورة الفقهاء، وأخذ يتعلم في مدرسة جده كيف يحكم حكم الإسلام، وكان أيامئذ في عنفوان الشباب فأذن للشعراء أن

ينشدوه فأنشدوه وارتجزوا بين يديه، وسمع الأصوات وطرب لها، وتمادى فصفق بيديه ورجليه، بل وتغنى بصوت ندي حسن التطريب.

وكان صوته من حسنه يلهي من يستمع إليه ممن ينقطعون للصلاة بالمسجد، صلى ذات ليلة فرفع صوته بالتلاوة قريبا من مجلس سعيد بن المسيب وهو كفيف فقال سعيد لغلامه برد: يا برد نح عنا هذا القارئ فقد آذنا بصلاته، واستمر عمر في صلاته دون أن يعرف أمر سعيد، وعاد سعيد يأمر بردا بتنحية هذا القارئ قال برد: ليس المسجد لنا! وأدرك الأمير.. فأخذ نعليه.. وتنحى..

وقدم أنس بن مالك خادم النبي ﷺ المدينة من البصرة فصلى خلف "الأمير" ثم قال: "ما صليت خلف إمام بعد رسول الله ﷺ أشبه بصلاة رسول الله من إمامكم هذا".

وأراد الوليد أن يوسع المسجد ويدخل فيه حجرات أمهات المؤمنين فأمست المدينة غضبى لزوال آثارها الكبرى، فراح الوليد يستعين بعمر لمكانة أخواله في المدينة، فوسع المسجد بإدخال الحجرات التسع فيه، وجوف المحراب فكان أول محراب مجوف، ورفع المنارة، فتعالت المآذن في الأقطار كافة، وكأنما تنقل للناس في كل أذان فضل عمر.

وفي ذات يوم جاءه خبيب بن عبد الله بن الزبير فقال: نشدتك الله يا عمر أن تذهب بآية من آيات الله تقول: (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) واستمر خبيب يتلو وعمر يغضب، ولكنه يمسك ثم حدث خبيب عن بني العاص – العاص جد مروان ومروان جد الوليد وعمر – "إن بني العاص يتخذون عباد الله خولا ومال الله دولا إذا بلغوا ثلاثين رجلا".

وجن جنون الوليد للتحدي فكتب إلى عمر أن يضرب خبيبا مائة سوط، وأطاع عمر الخليفة، فأمر بخبيب فضرب تعزيرا، ثم مات خبيب، فلما بلغ عمر موته سقط إلى الأرض فزعا، وصار إذا بشره أحد بالجنة قال: "كيف وخبيب على الطريق؟" فلما كادت نفسه تتلف ذهب إليه القاسم بن محمد بن أبي بكر – وهو ابن خال عبد الله بن الزبير أبي خبيب – فنصحه، فنصل عمر من ثوب الحزن الذي أطال ارتداءه.

* * *

وفي سنة ٩١ حج الوليد وقصد إلى المدينة فغدا إلى المسجد النبوي وقد أخلي له فخرج الناس إلا سعيد بن المسيب المخزومي، جلس عند القبلة في مجلسه المألوف، ليس عليه من الثياب إلا ربطتان ما تساويان إلا خمسة دراهم ولا أحد يجرؤ على إخراجه.

وكان بين سعيد والوليد أمور، منها رفضه أن يبايع له، ورفضه تزويجه بنته ودعاؤه على بني أمية في كل صلاة.

وكانت معاينة القبلة غرضا للزيارة قال عمر: "فجعلت أعدل بالوليد... لئلا يراه. فالتفت إلى القبلة فقال من هذا الشيخ: أهو سعيد؟ فقلت نعم ومن حاله كذا وكذا، وجعلت أعتذر له وأقول له لو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر، فقال: قد علمنا حاله، نحن نأتيه.. فدار في المسجد ثم جاء فقال: كيف أنت أيها الشيخ؟ فوالله ما تحرك سعيد، فقال بخير والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ وانصرف أمير المؤمنين وهو يقول: هذا بقية الناس وأن أقول أجل يا أمير المؤمنين".

واستشعر الوليد غضب المدينة فخطب قاعدا تكبرا وغلظة وترضى السادات بعطاياه.. فنفر الفقراء.

وكان الحجاز محل مراقبة الخليفة فهو ميدان معركة ابن الزبير التي لم تجف دماؤها بعد، ولعمر غرماء، مثل الحجاج وهو يفتك بالبشر تثبيتا لدعائم الدولة، وعمر لا يكف عن استهجان بطشه، مهما قدم للدولة من فتوحات في آسيا، فالدول تحيا قليلا بالنصر لكنها تحيا دائما بالنصفة.

وفتح عمر أبواب المدينة لمن يتعنتهم الحجاج من أهل العراق رحمة بالأمة وكتب للوليد يشكو بطشه بالبشر. وكان رد الوليد أن عقد للحجاج إمرة الحج في سنة ٩٢!! فهاج الناس وماجوا بالمدينة، فكتب عمر إلى الوليد يستعفيه أن يمر الحجاج بالمدينة فأمره أن يسلك إلى مكة غير سبيل المدينة.

وفي العام التالي عزل الوليد عمر بعثمان المري بعد سنوات ست لم تشهد مثلها المدينة منذ قتل عثمان، وستعقبها سنوات ست أخرى، يتناول فيها نفسه بالتطهير، والخليفة بالنصح، ليعد نفسه لتكون غدا مثل أنفس الصحابة، بل ليكون صاحبها في خلافته خامس الخلفاء الراشدين.

ولم تطل أيام الوليد ولا خلافة سليمان بعده، وأصبح أمير المدينة السابق أميرا للمؤمنين لكنه رعى المدينة وأهلها وسننها في المقام الأول، حتى لتعتبر أيامه في الخلافة امتدادا لأيامه في المدينة.

عمر – الثاني – يجتهد

أعلن عمر عزمه لإعادة الدين غضا مرات، وحسبنا مثلا عليها بعض عبارات:

الأولى من قبل أني لي الخلافة، يوم آلى على نفسه الألية الخالدة. لرجاء بن حيوة "فوالله لئن ابتليت بذلك، وإنها شرف الدنيا، لأطلبن بها شرف الآخرة".

والثانية يوم أعلن طريقته في الفقه أنها الاتباع الدقيق للسنة فقال: "سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا".

والثالثة يوم أعلن طريقته في الحكم: الاتباع الكامل، ولا اتباع مثل اتباع جده، فكتب إلى مستشاره السابق بالمدينة وهو حفيد آخر لعمر، سالم بن عبد الله يقول: "فقد ابتليت من أمر هذه الأمة من غير مشاورة مني ولا إرادة يعلم الله ذلك، فإذا أتاك كتابي فاكتب إلي بسيرة عمر بن الخطاب في أهل القبلة، وأهل العهد فإني سائر بسيرته إن الله أعانني"، فنصحه سالم: إنك لست في زمان عمر ولا في مثل رجال عمر.. ولا يمنعك من نزع عامل أن تنزعه أنتقول لا أجد من يكفيني مثل عمله، فإنك إن كنت تنتزع لله وتستعمل لله أتاح الله لك أعوانا وأتاك بهم، فإنما قدر عون الله للعباد على قدر النيات فمن تمت نيته تم عون الله له.

* * *

لقد صحت نية عمر فلم يثبطه أنه في زمن غير زمان جده، فأعلنها معركة إلى الجنة، وبدأ الجهاد إليها بنفسه وزوجه وولده، فإذا صدق الجهاد، بهؤلاء، بلغ الجهاد غرضه ولو كان صعودا بالدنيا إلى السماء.

وكأنما كان يعرف أن أيامه معدودات فضن بالساعات، عزل قبل أن يدفن الخليفة السابق، والي مصر وأفريقية لظلمهما، واسترجع جيش مسلمة بن عبد الملك، الذي جمده البرد والجوع في حصرا القسطنطينية ورجع إلى نفسه فنزع ثيابه، وكان لباسا، فليس كساء بثمانية[٢٢]

---

(٢٢) شهد جده – عمر بن الخطاب – في قدم كاتب حدث من كتاب عماله – زياد بن أبيه – خفين ساذجين وفي يده عصرا رأسها حديد، وعليه ملابس كتان، فغمز العصا في خفه حتى مزقه، وأدمى قدمه، فلما عاد

دراهم وباع ما عنده من متاع ولباس وعطر، بثلاثة وعشرين ألف دينار... دفعت إلى بيت المال، وقربت إليه مراكب الخلافة فدعا بمولاه مزاحم فقال له: هذه البراذين والخيل وهذه السرادقات... ضمها إلى بيت مال المسلمين، ورأى قميص ابنه وقد تمزق من ازدحام الناس عليه فقال له: يا بني أصلح جيب قميصك فإنك لم تكن أحوج إلى ذلك منك اليوم.

وأودع جواهر زوجته فاطمة بيت المال، فلما أحس منها عدم رضى خيرها بين اللحاق بأهلها وبين أن تقيم عنده، وأعلمها أنه شغل عن النساء بما في عنقه فرضيت، ودفعت حليها إلى بيت المال، فلم تستردها حتى بعد أن مات.. وضيق عليها وبنيها. فكانت تقول: "وددت لو أن بيننا وبين هذه الإمارة ما بين المشرقين"! وبعثت إليه بنت له بلؤلؤة وقالت إن رأيت أن تبعث إلي بأختها حتى أجعلها في أذني فبعث إليها بجمرتين وقال: إن استطعت أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك بعثت إليك بأخت لها.

وقدمت إليه امرأة من العراق قالت: هل على بيت أمير المؤمنين حاجب؟ قالوا لا، فدخلت من غير إذن على زوجته فاطمة وفي يدها قطن تعالجه.. فلم تر في البيت شيئا ذا بال، فقالت: إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخراب! فقالت لها فاطمة – إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك.

وكان له غلام يحتطب يقال له "درهم" فسأله ما يقول الناس يا درهم؟ قال: الناس كلهم بخير أما أنا وأنت فبشر... قال فأنت حر، فاذهب ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه فرجا.

وغاب بعد استخلافه ليالي يجمع سجلات قطائعه وقطائع بني مروان وعهود الأموال التي تجري عليهم، وكانت نحو نصف بيت المال، ثم نادى: الصلاة جامعة: وصعد المنبر فقال – أما بعد فإن هؤلاء – يقصد آباءه – أعطونا عطايا ما كان لنا أن نأخذها، وإني قد رأيت ذلك، ليس علي من دون الله محاسب، وإني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي، فجعل يقرأ السجلات ويمزق ما يقرأ وأمر أن ينادي في الأمة، أن ليس لأحد إلا ما في كتاب الله.

في اليوم التالي رجع في خفين غليظين وثوب من قطن بغير عصا، فلما رآه قال: هكذا وقال: بكم الخفان؟ قال زياد بدرهم واف – فأعطاه درهما وقال اشتر لي مثلهما.

قيل له لو أخذت من بيت المال ما كان يأخذ عمر بن الخطاب. قال: إن ابن الخطاب لم يكن له مال، أما أنا فمالي يغنيني، ثم جعل نفقته في ماله درهمين، وأبقى لنفقة بيته عينا بالسويداء عملها من صلب عطائه فكانت حلالا خالصة تعطيه في العام مائتي دينار.

ورجع إلى سائر بني أمية يأخذهم بما أخذ به نفسه فهان أمرهم عليه، وسمى أموالهم مظالم وجعل رد المظالم مشغلته، فطلبوا إليه أن يبرحوا دمشق سعيا وراء الرزق فأذن لهم، وأنفذوا إليه عمته قالت: أخاف أن يهيجوا عليك يوما عصيبا! قال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة لا وقاني الله شره.. ودعا بدينار ونار فلما احمر الذهب قال: يا عمة أما ترثين لابن أخيك من مثل هذا؟ وأخذتها الموعظة، فعادت إلى قومها تقول: تزوجون ابنكم عبد العزيز من آل عمر فإذا نزع ابنه إلى الشبه جزعتم!!

وبعث عمر إلى الأمصار معلمين للسنن وكتب إلى الولاة يكلفهم أن يقضوا ديون الغارمين، فكتبوا له – إنا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس، والأثاث في بيته فكتب إليهم: "لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته وفرس يجاهد عليه عدوه وأثاث في بيته، فهو غارم، فاقضوا دينه".

وانطلق يوزع على الناس حقوقهم – حدث يحيى بن سعيد (١٤٣) قال بعثني عمر على صدقات أفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا، ولم نجد من يأخذها، قد أغنى عمر الناس، فاشتريت رقابا فأعتقتهم، وولاؤهم للمسلمين، ذلك في أقصى الأرض بأفريقية وهو كذلك بالمدينة حيث حدث رجل من ولد زيد بن الخطاب "إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده، فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس".

* * *

كان في دمشق وعقله في المدينة، كتب إلى أهلها: من تعبد بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه، ومن جعل علمه غرضا للخصومات أكثر التنقل.

ولم يكن يجيئه رجل إلا سأل عن أهلها كافة، سأل رجلا مرة، ما حال المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا، قال: قاموا يا أمير المؤمنين قد أغناهم الله.

وقدم عليه زياد بن أبي زياد[٢٣] من المدينة في حوائج لمولاه ابن عياش فقال: السلام عليكم ونسى السلامة بالإمارة فعاد يسلم بها، قال أمير المؤمنين يا ابن أبي زياد إننا لسنا نكر الأولى التي قلت... ومشى إلى زياد وهو جالس على أسكفة الباب حتى جلس بين يديه ووضع يديه على ركبتيه وقال: يا ابن أبي زياد استدفأت في مدرعتك واسترحت مما نحن فيه؟ ثم سأله عن صلحاء المدينة فما ترك منها أحدا.. وأعطاه من ماله عشرين دينارا قائلا: استعن بهذه. فإنه لو كان لك في الفئ حق أعطيناك حقك وأبى أن يأخذها فما زال به حتى أخذها، ثم قضى حوائج ابن عياش وخرج، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه له ولأصحابه يأخذون ما يشاءون فنظر الخادم إلى عمر فاقتحمته عينه ففعل فدخل زياد فأخذ لنفسه بضعة وثمانين درهما فلما رأى الخازن ذلك قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يسلطه على بيت المال.

وكتب عمر إلى ابن عياش يطلب أن يبيعه زيادا ليعتقه فأبى أن يبيعه وأعتقه.

كان الناس يقومون له في المجلس فيقول لهم: إن تقوموا نقم – وإن تقعدوا نقعد. وإنما يقوم الناس لرب العالمين.

وكان فقيها، وأي فقيه، جاءه مصري من "حلوان" يقول إن أباه عبد العزيز غصب ضيعته في إبان ولايته، وعنف على عمر فقال عمر: نازعني منازعة كريمة ولا تشتم عرضي فإن لي فيه شركاء، إخوة وأخوات، وهؤلاء لا يرضون أن أرد لك الضيعة بغير قضاء، والرأي أن تذهب إلى القاضي.. وظهر أن الأرض للرجل فقال عمر: قد أنفقنا عليها ألف دينار. فنظر القاضي فإذا عمر وأهله قد أخذوا منها قدر ما أنفقوه، فقال: قد أخذتم منها بقدر ما أنفقتم، فقام عمر نرد الأرض قائلا للرجل بارك الله عليك.

---

(٢٣) زيدا بن ميسرة – وكان عبدا – هو مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة القرشي، كان عمر يستزير، ويكرمه، يروي عنه مالك بن أنس أنه كان عابدا معتزلا لا يزل يذكر الله، ويلبس الصوف ولا يأكل اللحم، وقال محمد بن المنكدر ،شيخ مالك، للناس يوما: إني خلفت زياد بن أبي زياد يخاطب نفسه في المسجد ويقول: أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد! تريدين أن تبصري دار فلان! مالك يا نفسي غير الخبز والزيت.

وكتب إليه عدي بن أرطاة يستأذنه في أن يمس الناس بسوء ليحصل منهم على إقرار بما عليهم من الخراج فكتب إليه "العجب كل العجب من استعانتك إياي في عذاب البشر، كأني جنة من عذاب الله. فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إلي من أن ألقاه بعذابهم".

وشكا عديا إليه رجل فأشكاه ورد إليه أرضه ثم قال له: كم أنفقت في مجيئك إلي؟ قال لا تسألني عن نفقتي، وقد رددت إلي أرضا خيرا من مائة ألف؟ فقال إنما رددت إليك حقك، وأمر له بالمصاريف من بيت المال فلما ولى صاح به: خذ خمسة دراهم من مالي فكل بها لحما حتى تجرع إلى أهلك إن شاء الله.

دخل عليه غلام مع أبيه، فسأل أباه ماذا تعلمه؟ قال: الفقه.قال: علمه الفقه الأكبر. قال وما الفقه الأكبر. قال: القناعة وكف الأذى.

ودخل عليه رجل من قريش لا ترده الخلفاء عن حاجة فطلب إليه طلبا لا يجوز – رده فخرج مغضبا، فناداه فرجع فقال له: "إذا رأيت شيئا من الدنيا فأعجبك فاذكر الموت فإنه يقلله في نفسك، وإذا كنت في شئ من الدنيا قد غمك فاذكر الموت، فإنه يسهله عليك، وهذا أفضل مما طلبت".

وتناهى عمر في الأمر برد المظالم إلى حد التشجيع على الشكوى بالإغداق، فكتب إلى أهل المواسم ليقولوا للناس إن أمير المؤمنين يقول: "أيما رجل قدم علينا في مظلمة أو أمر يصلح به خاصا أو عاما من أمر الدين فله ما بين مائة دينار إلى ثلثمائة دينار بقدر ما يرى من الحسبة، وبعد الشقة، لعل الله يحيي به حقا أو يميت باطلا، أو يفتح من ورائه خيرا".

* * *

لم يكن يهتم بزيادة الدولة ولكن زيادة العدل كانت همه، كتب إلى واليه ليرسي دعائم الدولة على أركانها: "إن للسلطان أركانا لا يثبت إلا بها.. فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا (يريد الخليفة). فعمر لا يقول مقالة أبي جعفر المنصور، إنما أنا ظل الله في الأرض، فهو أفقه وأورع، وهو فوق فقهه وورعه أعدل، وأعلم. فالوالي أداة الحكم التي تمسك الرعية وتخدمها والقاضي مقدم على صاحب المال. فالعدل والولاية عند عمر صنوان، يسبقان كل الأركان، بما في ذلك وظيفة الخليفة التي أجاءها الخليفة إلى المحل الأخير.

ولم يكتف عمر بالرجوع إلى آراء العلماء،بل راح يستعملهم، أرسل أبا الزناد الفقيه كاتبا أو مساعدا لعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في خراج العراق، وولى الحسن

البصري (١١٠) حينا على قضاء البصرة، مثلما استعمل يحيى بن سعيد على أفريقية وميمون بن مهران[٢٤] على خراج الجزيرة وسليمان بن يسار (على سوق المدينة) وأبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم على المدينة وما كان يقدم على أبي بكر كتاب من عمر إلا وفيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة، أو قسم أو تقدير عطاء، حتى خرج عمر من الدنيا، قال: كتب إلي عمر أن أستبرئ الدواوين فأنظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فأرده إليه، فإن كان أهل المظلمة ماتوا، فادفعه إلى ورثتهم، وكتب عمر إليه مثلما كان جده يكتب إلى قضائه: وإياك والجلوس في بيتك، اخرج إلى الناس، آس بينهم في المجلس والنظر، ولا يكن أحد من الناس آثار عندك من أحد، ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين.. وإذا أشكل عليك فاكتب إلي".

وكتب إليه في أول خلافته، عندما وقع في يده كتاب منه إلى سليمان بن عبد الملك يطلب شمعا يستضئ به الناس في طريقهم إلى المسجد بين المغرب والعشاء: "أما بعد فقد قرأت كتابك الذي كتبت به إلى سليمان بن عبد الملك وكنت المبتلى بالنظر فيه دونه، كتبت.. وتذكر أن الشمع الذي عندك نفد ولعمري قد طالما رأيتك تخرج من منزلك إلى المسجد في الليلة الظلمة الوحلة بغير ضياء، ولعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم".

وأبو بكر يعمل ليل نهار لاستحثاث عمر إياه، فلقد كان عمر يحس أن أيامه معدودات، وإلى أبي بكر وضح عمر حقوق أفراد المسلمين في بيت المال فقال: "افرض للناس العطاء إلا لتاجر".

---

(٢٤) صلى في سبعة عشر يوما سبعة عشر ألف ركعة، قال فيه عمر بن عبد العزيز: "إذا ذهب هذا وضراؤه صار الناس رجراجة"، ولاه عمر قضاة الجزيرة وخراجها فبعث يشكو شدة الحكم والجباية فكتب إليه: "إني لم أكلفك ما يعنيك، اجتن الطيب، واقض بما استبان لك أنه الحق فإذا التبس عليك الأمر فارفعه إلي، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا". وكان ميمون في السبعين من عمر، في خلافة عمر ومات سنة ١١٠ عن ثمانين عاما.

فالتاجر قادر أو موسر.

ولما تولى يزيد بن عبد الملك نزع أبا بكر بن حزم من إمرة المدينة وولى عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري، فدخل عليه أبو بكر فلم يعرف له حقه، فقال له: هذا شئ لا تملكه قريش للأنصار ،وجلس في بيته وحذره، فلقد كان يزيد مثلا للفساد، وكان واليه مثلا للشقاء... ضرب أبا بكر ظلما وجزت السماء ظلمه بالعدل، فعزل سنة ١٠٤ ثم قال شاهد عيان فيما بعد... فرأيت عبد الرحمن بن الضحاك وعليه جبة صوف يسأل الناس.

* * *

كانت "المدة" كما أطلق المسلمون على الشهور الثلاثين من خلافة عمر، ثورة دينية واجتماعية، وجاءت من عل،فدلت بما حالفهما من النجاح على أن الإصلاح مستطاع أبدا،دون سفك أو قسوة، وعلى يد رجل واحد يهب له نفسه.. وعلى أن صلاح الدنيا مقترن بصلاح الدين، والناس يرمون الإمام بالحدق، من بعيد، فيرونه بجمعه، ويرون منه ما لا يراه من نفسه، والصحة فيه تعدي كما يعدي المرض.

لقد بلغ عمر بحكمه أن أغنى الناس في الحياة الدنيا ثم بلغ ما هو أعلى: أن يقودهم إلى طريق الجنة.

ودلت هذه "المدة" – وما كانت إلا مديدة –على أن طول الزمن أو قصره ليس بذي بال، وإنما الأثر للقوة والعمق، والقوة في الصدق، والعمق في ابتغاء وجه الله وحده.

وحق لعمر أن يقول لمولاه وهو يتهيأ للحج: ".. إن لي نفسا تواقة لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هو أرفع منها حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة. وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة".

* * *

أصبح عمر أقرب الخلفاء الراشدين الخمسة إلى مالك، فقد عاش حداثته في أيامه، وبلغ أشده في ذكرياته، وكان جده وعمه يدخلان عليه، وأصبحت سيرته علما من علومه، وكأنما كانت توجيهاته للفقهاء توجيهات مباشرة لمال: والزهري وأبو بكر بن حزم في صدارة هؤلاء، الأول عاش عشرة أعوام ولمالك حلقة،والثاني عاش بضعة عشر كذلك.

وسنرى أثر ذلك في عمله الفني الأشهر – الموطأ – وفي المحيط الذي أحيط به وكان إذا ذكر كلمته اهتز طربا وباهى بأنها كلمات عمر!! وأصبح مالك أول وأعظم من درس لتلاميذه سيرة عمر، وشمل الكتاب العظيم الذي وضعه تلميذه عبد الله بن عبد الحكم، عن عمر، روايات مالك.

* * *

وبموت عمر سنة ١٠١ مسموما، على قول، أو من إجهاد نفسه على قول آخر، عادت الأمور تجري في أعنتها بيزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥) وكان ولي العهد بوصية من سليمان لم يغيرها عمر خوف الفتنة، وكان يزيد جماعا لرذائل بني أمية ومروان، من سلب الثروات والانغماس في الشهوات، فكان بداية النهاية، وإن تأخرت شيئا، لإمساك أخيه هشام بالزمام، وحسبنا عنوان على فساد حكمه وحياته أن لعبت سلامة وحبابة المغنيتان دورا رئيسيا في بلاطه، وفي نشاطه. طرب يوما، وعنده حبابة وسلامة، فقال: دعوني أطير، قالت حبابة: إلى من تدع الأمة؟! ولعله كان باخعا نفسه يوم ماتت حبابة لولا نصح أخيه مسلمة أن يتماسك بين الناس ومع ذلك لحقها بعد موتها بأيام سبعة.

وخلفه هشام (١٠٥ – ١٢٥) وكان يقرب العلماء كالزهري وأبي الزناد لكنه لا يتسامح فيما يمس الدولة. خرج عليه زيد بن علي سنة ١٢٢، وكان عالم عصره وخرج أهل الكوفة للقتال معه، فقتل.

وهرب ابنه يحيى إلى خراسان فقتل في سنة ١٢٥، فسمت كل والدة بخراسان وليدها في ذلك العام باسمه، وكان قتله ذريعة لإشعال الخراسانيين الحرب التي انتهت بقيام دولة بني العباس، وكان لهشام ابن من قادته المغاوير هو معاوية أبو عبد الرحمن الداخل، الذي أقام دولة الأمويين بالأندلس بفراره من سفك بني العباس.

ولي المدينة لهشام خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل من ١٠٥ إلى ١١٥ وهي الفترة التي جلس فيها مالك للتدريس، أول ما جلس، فلما عزل وليها خالد بن عبد الملك بن الحرث بن الحكم بن أبي العاص.

وخلف هشاما الوليد بن يزيد (١٢٥ – ١٢٦) فتهتك تهتك أبيه، ولما حملت إليه رأس يحيى بن زيد استعرضها في وليمة!

وفي سنة ١٢٦ أخذ يزيد بن الوليد البيعة لنفسه، وقتل الوليد، فنقص يزيد أعطيات المدينة فأطلقت عليه: يزيد الناقص.

وفي سنة ١٢٦ مات يزيد وخلفه إبراهيم بن الوليد. وفي سنة ١٢٧ دخلت جيوش مروان بن محمد مروان مدينة دمشق، ثم أخذ مروان البيعة لنفسه وقضى سنوات خمسا يحارب أهله والخوارج الذين دخلوا المدينة سنة ١٣٠ بقيادة أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي – بعد أن قتل من أهلها ألفين ونيفا.

وكان واليا عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، فسفر بينه وبين أبي حمزة السفراء: عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر وعبد الله بن عمر بن عمر بن الخطاب، ومعهم ربيعة الرأي في رجال أمثالهم، وطبق أبو حمزة على الوفد مبادئ الخوارج، فعبس وبسر في وجه الأولين – حفيدي علي وعثمان – وبشر في وجه الثالث والرابع حفيدي أبي بكر وعمر، وقال لهما: والله ما خرجنا إلا لنسير بسيرة أبويكما، قال له عبد الله بن الحسن: والله ما جئناك لنفضل بين آبائنا ولكن بعثنا الأمير إليك برسالة وهذا ربيعة يخبرك بها.

وهكذا لا نجد مالكا يسفر بين السفراء وهو قد قارب الأربعين، فلم تكن حلقته عند ذلك، لتحجب أضواء حلق الآخرين، وسفر ربيعة مع أبناء علي وعثمان وعمر وأبي بكر رضي الله عنهم.

واستمر مروان يحارب ليثبت ملكه حتى جاءته جيوش العباسيين من خراسان فانهزم وفر إلى مصر حيث قتل.

بنو العباس

وقامت دولة بني العباس سنة ١٣٢ وانتقل مقر الخلافة من دمشق إلى الكوفة فازدادت الخلافة بعدا من المدينة، وانطلقت شياطين البطش –فسفك السفاح (١٣٢ – ١٣٦) دماء بني أمية وروى عمه داود بن علي رماحه من الدم بما لم يسمع التاريخ مثله[٢٥] وولي الخلافة بعده أخوه أبو جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨) فكان يبطش البطشة الكبرى بخصومه وقواده، وكأنه يتنفس! حتى إذا كانت سنة ١٤٤ عرف ما يدبره بنو علي ضده بالمدينة فأوفد الرسل إلى عبد الله بن الحسن والد محمد بن عبد الله، وقد سبق أن بايعه أبو جعفر، وكان مالك بن أنس يحمل أعلام الفقه خفاقة في الأفق من ثلاثين عاما، لا يقاربه الخلفاء ولا يقاربهم – أما بنو علي فليس هواه معهم. ولهذا كان محل ثقة أبي جعفر فكان سفيره إلى عبد الله بن الحسن.

---

(٢٥) في سنة ١٣٢ نادى قائد السفاح بالأمان لبني أمية فاجتمعوا إليه وفيهم محمد بن عبد الملك بن مروان وأبناء إخوته هشام ويزيد وسليمان وثمانون رجلا من بني أمية، فلما اجتمعوا آمنين قال: أحسبت بنو أمية أن سيرضى هاشم عنها ويذهب زيدها وحسينها! فوضع الجند الأعمدة يشد خولهم وأتوا على آخرهم، وفي سنة ١٣٣ جمع السفاح بقية بني أمية ليقتلهم فقال له عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي: يا أخي إذا قتلت هؤلاء بمن تباهي؟ أما يكفيك أن يروك رائحا وغاديا فيما يسوؤهم! فقتلهم.

وفي سنة ١٣٣ قتل قواد يحيى بن محمد أخي السفاح ثلاثين ألفا وفي سنة ١٣٤ دخل سليمان بن هشام طاعة السفاح وسفك السفاح دمه.

الفصل الثاني

الشعر والغناء في الحجاز

"لست من دد ولا دد مني ولست من الباطل ولا الباطل مني"

(حديث شريف)

استسلمت المدينة لقدرها المقدور عليها، وضمر حجم التجارة، وهي والعمل والعلم من قديم صناعات الأشراف وسواد الناس.

واتسمت الحضارة بميسمها الأول، فوجدنا العمال الفقهاء والفقهاء العمال... المسيب أبا سعيد زياتا، وأيوب السختياني يبيع جلود السختيان، ثم ميمون بن مهران بزازا، ومالك بن دينار وراقا يكتب المصاحف، وكان من بني عيينة بمكة خزازون عشرة.

وتتابعت أسماء أصحاب الصناعات من الفقهاء العالميين في بلاد الإسلام تتابع أسماء الصناعات ذاتها مثل الصفار (من يبيع الأواني الصفرية) والجصاص والحلواني والخصاف والتيان (من يبيع التين) والقدوري والبقالي والكرابيسي (من الكرابيس = الثياب) وابن الساعاتي[٢٦] وكانت بنته من الفقيهات كزوجة الكاساني. كانت بنت علاء الدين السمرقندي من الفقيهات، تخرج الفتوى منها وعليها خطها وخط أبيها، فلما تزوجت صاحب البدائع كانت الفتوى تخرج وعليها خطها وخط أبيها وخط زوجها، وقد آثره أبوها على جماعة من ملوك الروم المسلمين خطبوها منه، وتتابعت بالمدينة أسماء الفقيهات في بيوت العلم العريقة ومنهن فاطمة، زوجة عبد الله بن أبي بكر بن حزم، وفاطمة بنت مالك – أم أبيها – وعمرة بنت عبد الرحمن وأم الدرداء زوج أبي الدرداء وزينب بنت أبي سلمة كمثل أخريات كثيرات لسن إلا تلميذات بارعات في مدرسة المدينة، يقتفين آثار عائشة وأم سلمة، في دين يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

---

(٢٦) أحمد بن علي شيخ الحنفية (٦٩٤) أبوه صانع الساعات التي اشتهرت بقصر المستنصر ببغداد.

وكان من رائع الصور أن يتخصص أبناء الخلفاء الراشدين، وكبار الصحابة لا في البلهنية والرفاهية ولكن في الفقه والزهادة كمثل ما صنع عبد الله بن عمر ثم ابنه سالم والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وابنه عبد الرحمن، وعروة بن الزبير، وأخوه عبد الله، وإبان بن عثمان بن عفان، وعلي زين العابدين بن الحسين بن علي وابناه زيد والباقر.

والقاسم وسالم وزين العابدين أبناء خالات أمهاتهن بنات يزدجرد ملك الفرس وكمثلهم أبو سلمة بن عبد الرحمن، أمه تماضر بنت الأصبغ، ملك قبيلة أخضعها أبوه عبد الرحمن بن عوف في عهد الرسول..

ويتنازع المؤخرون في سالم وأبي سلمة أهما من الفقهاء السبعة، أم أن أبا بكر بن الحارث هو السابع وأبو بكر نفسه ابن أخ لأبي جهل زعيم قريش في الجاهلية...

وفي هذا المحيط العلمي ومهبط الوحي نشأ عمر بن عبد العزيز، فصار من العلماء قال: "خرجت من المدينة وما أحد أعلم مني، فلما قدمت الشام نسيت".

* * *

وفي العصر ذاته تجمع في الحجاز بمكة والمدينة والطائف كثيرون ممن اعتزلوا الحياة السياسية، وقليلون ممن عادت على أصولهم الفتوحات بالثراء، أو أجزلت لهم الدولة العطاء، وساعدت أموال الحجيج أحيانا في اقتصاد الحجاز فوجدت العمائر وزادت طوائف الخدم والرقيق، ووجدت رفاهة فكرية بل وجدت رفاهة مادية في ثلة قليلة تنساب الخيرات منها إلى الناس.

واشتهرت بالمدينة مجالس سكينة بنت الحسين بن علي، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله، وقد اجتمعتا سنوات، لرجل واحد هو مصعب بن الزبير، حتى لقي مصرعه في حرب أخيه عبد الله، دفاعا عن خلافته بمكة، ضد عبد الملك.

لكن الرفاهة كانت وقفا على هذه الطبقة، وحسبك دليلا على انحصارها فيها أن يكون على رأسها عبد الله بن جعفر أو هاتان، وهما لا تتكرران أبا أو جدا أو زوجا، أو مواريث فضل أو مال.

وكان سائر الناس يمدون أبصارهم إلى العواصم في انتظار عطاء أو تجارة أو بر يقدم على الواحة الخضراء في الصحراء.

ومضى الدهر الذي روى عنه مالك: كان رجل من الأنصار يصلي في حائط له (بستان) في القف – واد من أودية المدينة – في زمان الثمر والنخيل، فهي مطوقة بثمرها، فنظر إليها فأعجبته ثم رجع إلى صلاته فهو لا يدري كم صلى، فقال: لقد أصابتني في مالي هذا فتنة، فجاء عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة فذكر له ذلك وقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الخير.. فباعه عثمان بخمسين ألفا فسمي ذلك الحائط الخمسين.

وتخلف عن رفاهة القلة ما شاءت المدينة من ازدهار في الشعر والأدب والسماع.

وتغير الدهر وعرفت بالمدينة معاقرة الخمر، ونظم فيها الشعر، وانشغل ولاة السوء عن تطبيق الحدود، فإذا بنا نقرأ بالحق أو الباطل – في بيت شعر واحد أسماء فتية عرفوا في مجتمع المدينة بعد انتقال الخلافة إلى دمشق، أنضى الاستهتار سيرهم فهزل الشعر أوزانهم. قال الشاعر:

إذا أنت نادمت العتير وذا الندى جبيرا وعاطيت الزجاجة خالدا

* * *

وساعد الفراغ والجدة، وأسباب الترف والدعة، على استعلاء شأن الغناء، وفرح بنو أمية بأن تلهو المدينة الغضبى عن الشحناء في دمشق مع الخلفاء، وسعدوا بما قد يشوه صورة المدينة في أذهان الأمة.

فلما أصبح الغناء فنا في المدينة له نجومه، أصبحت دمشق أول المستوردين له، وتابعتها بغداد عندما صارت عاصمة.

لقد مات أو كاد، يزيد بن عبد الملك في هوى "حبابة" وقد اشتراها وسلامة القس من المدينة، وكان ثمن سلامة وحدها عشرين ألف درهم، وهما تلميذتان لجميلة.

وجميلة أصل من أصول الغناء أخذ عنها معبد، وابن عائشة وسلامة وغيرهم، وكان لها وقارها.

حجت مرة وحج معها خمسون قينة من قيان المدينة، أرسلهن معها مواليهن تعظيما لها، فلما بلغ الركب مكة تلقاه المغنون العظام ابن سريج والغريض وابن محرز، والشعراء الفحول، مثل عمر بن أبي ربيعة وكان أبوه واليا على الجند باليمن للنبي وأبي بكر وعمر، ومثل الحارث بن خالد المخزومي، والعرجي. فلما قضت حجها سألها المكيون أن تجعل لهم مجلسا. فقالت: أللغناء أم للحديث؟ قالوا: لها جمعا. قالت ما كنت لأخلط جدا بهزل. وأبت، فحلف عمر بن أبي ربيعة على من يريد سماعها إلا أن يخرج معها إلى المدينة، فخرج الناس معها وفيهم المغنون فلما مضى على مقامها بالمدينة عشرة أيام قالت لعمر: إني جالسة لك ولأصحابك وغنتهم من شعر عمر، فدمعت عينه، ثم غنى ابن سريج، وغنى كل من حضر.

زارها في دارها يوما عبد الله بن جعفر قال: يا جميلة، قد سمعت ما آليت أنك لا تغنين أحدا إلا في منزلك، وأحببت الاستماع منك، فغنته بيتين لامرئ القيس أنقاذ جماعة من المسلمين.

* * *

وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ولدته أمه بالحبشة بين المهاجرين الأولين، وأبوه بطل مؤتة وشهيدها – الطيار في الجنة – فلما استشهد كفل الرسول ابنه عبد الله.

كان عليه السلام ينظر إليه إعجابا ويأخذ بيمينه ويقول: "اللهم اخلف جعفرا في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه. وأنا وليهم في الدنيا والآخرة" ولما كبرت السيدة زينب ابنة علي من فاطمة الزهراء زوجها من ابن عمها، وإليه أصهر عبد الملك بن مروان في بنته أم أبيها، لينال الشرف. روى للرسول خمسة وعشرين حديثا وروى عنه بنوه والقاسم وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف. أقرض الزبير بن العوام ألف ألف، فلما قتل جاءه عبد الله بن الزبير يقول: إن في كتب أبيه دينا على ابن جعفر ألف ألف. قال: هو صادق، فاقضها إن شئت، ثم عاد إليه ابن الزبير يقول إن الدين لك لا عليك فقد وهمت. قال ابن جعفر: لا أريد ذلك فإن شئت فهو لك، وإن كرهت فلك فيه نظرة، توفي سنة ٩٠ وقد عبر التسعين وصلى عليه إبان بن عثمان بن عفان وكان واليا على المدينة ومن فقهائها المعدودين فحمل سريره ودفنه وهو يقول ودموعه تسيل: "كنت والله خيرا لا شر فيك" وأبو حنيفة يستشهد به في الدين فيقول: "إذا تزوج الرجل المرأة وامرأة أبيها فهذا جائز. بلغنا ذلك عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أنه فعل ذلك. وبه نأخذ".

أما أم عبد الله فأسماء بنت عميس، تزوج منها أبو بكر بعد موت جعفر ثم تزوجها علي بعد موت أبي بكر، فكان محمد بن أبي بكر ناسك قريش ويحيى بن علي أخويه لأمه وأختا أسماء – لأمها – أم المؤمنين ميمونة وأم الفضل زوج العباس (جدة بني العباس). وأما شقيقتاها فكانتا عند حمزة عم النبي وبطل بدر وشهيد أحد، وعند شداد بن الهاد، ولذلك قيل عن أمهن: أكرم عجوز في الأرض أصهارا.

وحق لنا أن نتصور عبد الله بن جعفر في المدينة حتى وفاته في أواخر القرن أقرب المسلمين إلى قلوب المسلمين.

* * *

وأول من غنى بالعود في المدينة سائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر، أخذ الغناء عن نساء صناجات بالمدينة وعن فارسي يقال له (نشيط) غنى بالفارسية فأعجب عبد الله فاشتراه فكان يغنيه، فقال سائب خاثر لمولاه: أنا أصنع لك مثل ذلك بالعربية، فأول شعر غني بالعربية غني لعبد الله بن جعفر، ولم يغن سائب خاثر ولا نشيط إلا له.

ولما وفد عبد الله على معاوية صحب معه سائبا، وأسمع معاوية سائبا وهو يغني:

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وزار عبد الله عبد الملك بن مروان وهو مريض فدعا "بديح" المغني فرقى عبد الملك، ولما شفي عبد الملك علم أنه رقاه بالشعر، فما برح ابن جعفر حتى جعله يفرغه في مسامعه.

وغنى سائب خاثر ليزيد بن معاوية فخوله وموله وواعده المدينة، لكن سائبا قتل يوم الحرة، فلما بلغ يزيد مقتله قال: أو بلغ القتل إلى سائب خاثر وطبقته؟ ما أرى أنه بقي في المدينة أحد! قبحكم الله يا أهل الشام.

وفي عهد الوليد دعي إلى البلاط مغنيا الحجاز المشهوران ابن سريج ومعبد وكان الوليد نصيرا للفنون عامة.

وقالوا إن سعيد بن مسجح، وهو مكي أسود، نقل غناء الفرس وألحان الروم إلى غناء العرب، تعلمها على البنائين لقصر معاوية بدمشق، وأن ابن محرز أخذ عنه.

وامتلأت مكة والمدين وضواحيها بالغناء والمغنيين، واشتهر في عصر واحد من الكبار بالحجاز: ابن سريج والغريض ومعبد، وصار مثلهم حنين بالعراق، قيل له أنت تغني من خمسين سنة، ما تركت لكريم دارا ولا مالا ولا عقارا إلا أتيت عليه. قال: بأبي أنتم إنما هي أنفاسي، أقسمها بين الناس، أفتلومونني أن أغلي بها الثمن!!

ووجد في عصر واحد جميلة وهيت، وبرد الفؤاد، ونومة الضحى، ورحمة، وهبة الله، ومعبد، وابن عائشة، وعزة الميلاء، وحبابة، وسلامة القس، وسلامة الزرقاء، وبلبلة، ولذة العيش، وغيرهم.

وكان عبد الملك وسليمان وهشام ومروان بن محمد يستمعون للمغنيين وبينهم وبين الندماء ستارة.

* * *

وفي عهد أبي جعفر المنصور – عهد العلم والوقار والتقشف – لمعت مغنيات المدينة.

خذ مثلا بين أمثال: "بصبص"، يأتيها عبد الله بن مصعب[٢٧] وفتيان قريش يستمعون، ويمر المنصور بالمدينة في حجه فينشد مصعب:

أراحل أنت أبا جعفر ... من قبل أن تسمع من بصبصا

لو أنها تدعو إلى بيعة ... بايعتها ثم شققت العصا

(٢٧) ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير.

وكانت البيعة ونقضها وشق عصا الطاعة من جراح قلب أبي جعفر.. فدعاه وقال له: إما أنكم آل الزبير قديما ما قادتكم النساء وشققتم معهن العصا[٢٨] حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع المغنيات. فدونكم يا آل الزبير هذا المرتع الوخيم.. ثم بلغ المنصور أن عبد الله اصطبح مع "بصبص" وهي تغنيه بشعره:

إذا تمـــــــــــززت صـــــــــــراحية كمثـــــل ريـــــح المســـــك أو أطيبـــــا

فمـــــا أبـــــالي وإلـــــه الـــــورى أشـــــــرق العـــــــالم أم غربـــــــا

فقال أبو جعفر: لكن العالم لا يسألون كيف أصبحت ولا أمسيت... الذي يعجبني أن يحدو بي الحادي الليلة بشعر طريف العنبري.. ثم دعا حاديا وحفظه الشعر:

إنـــي وإن كـــان ابـــن عمـــي كاشـــحا لمـــــزاحم مـــــن دونـــــه ووراثـــــه

وممـــــده نصـــــري وإن كـــــان امـــــرأ متزحزحـــــا فـــــي أرضـــــه وســـــمائه

وإذا غـــــدا يومـــــا ليركـــــب مركبـــــا صـــــعبا قعـــــدت لـــــه علـــــى سيســـــائه

فلما كان الليل حدا الحادي فقال: هذا، والله، أشبه بالمروءة من غناء "بصبص". فحدا به ليله أجمع. فلما أصبح قال: يا ربيع أعطه درهما فأعطاه درهما فقال: يا أمير المؤمنين لقد والله حدوت بهشام بن عبد الملك فأمر لي بعشرين ألف درهم، وتأمر لي بدرهم واحد! قال أبو جعفر ذكرت ما لم يجب ذكره، وصفت رجلا أخذ مالا من حله وأنفقه في غير حقه، يا ربيع. اشدد يديه حتى يأتي بالمال. قال الرجل: قد مضت على هذا السنون وقضيت به الديون، وتمزقته النفقات، وما بقي عندي منه شئ، فلم يزل أهل الخليفة وخاصته يسألونه حتى كف عنه، وشرط عليه أن يحدو به ذاهبا وراجعا ولا يكف عنه.

---

(٢٨) لعل قصده أن أم المؤمنين عائشة كانت تريد الخلافة لجده عبد الله بن الزبير وأن أم عبد الله ذات النطاقين، أسماء أختها، كان تؤيده في خلافته.

ولقد وقعت هذه الوقائع في المدينة في الوقت الذي وقعت فيه لمالك وأبي جعفر وقائع ذات بال.

ولم يكن المهدي أقل ورعا من أبيه. وقيل إنه اشترى (بصبص) من المدينة وهو ولي عهد بسبعة عشر ألف دينار وأنها ولدت له عليه بنت المهدي.

* * *

ولم يكن شأن الغناء عند الفقهاء غيره عند الخلفاء العلماء: معاوية وعبد الملك وأبي جعفر. مر ابن سريج مغني مكة بعطاء بن رباح[٢٩] (١١٤) وهو بمكة كابن المسيب بالمدينة، وبابن جريج (١٥٠) فحلف عليهما بالطلاق أن يغنيهما فإن نهياه بعد أن يسمعاه انتهى فغناهما فطربا. ولما ختن ابن لعطاء طعم الناس وتفرقوا إلا خاصته دعوا ابن سريج والغريض، فلما قدما انتقلوا بهما في داخل داره وبقى عطاء في مجلسه، فغناهم ابن سريج:

أمنقطع يا عز ما كان بيننا وشاجرني يا عز فيك الشواجر

وغنى الغريض، وعطاء في مكانه وربما ملل رأسه وتحركت شفتاه، قالوا: يا أبا محمد أيهما أحسن غناء؟ قال الرقيق الصوت يعني ابن سريج.

وجلس ابن جريج في حلقته بمكة وعبد الله بن المبارك أمام أهل خراسان فيمن حوله فمر ابن ميزن المغني فدعاه فغناه واستعاده ثم التفت إلى التلاميذ فقال: لعلكم أنكرتم ما فعلت؟ قال العراقيون المتحلقون: إننا نكره عندنا في العراق. قال: فما تقولون في الرجز؟ يعني الحداء. قالوا لا بأس به عندنا. قال فما الفرق بينه وبين الغناء؟[٣٠]

---

(٢٩) قال فيه أبو حنيفة: ما رأيت أحدا أفضل من عطاء. وقال فيه ابن سريج: كان المسجد فراشه عشرين سنة. وقال فيه الأوزاعي: مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس.

(٣٠) وكان عكرمة مولى ابن عباس صنو عطاء بمكة وعنده علم ابن عباس، قدم البصرة فأحاط به المحدثون العلماء وجلس يحدثهم فسمع صوت غناء فقطع الحديث يسمع. ثم قال: قاتله الله فقد أجاد. ولم يعد بعض العلماء إلى المجلس في الغداة. وعاد البعض ومنهم أيوب السختياني العالم العامل أستاذ يزيد بن هرون، ويزيد يقول عن عودته للمجلس: قد أحسن. ويزيد أستاذ أحمد بن حنبل.

وأهل الحجاز أصحاب ظرف ورقة. خرج عبيد الله بن عمر العمري حاجا فرأى امرأة رفثت بكلام، فقال لها: يا أمة الله ألست حاجة؟ ألا تخشين الله؟ فسفرت عن وجه يبهر كالشمس، ثم قالت: تأمل يا عمي، فإني ممن عنى العرجي بقوله:

مـن الـلاء لـم يحججـن بغيـة حسـبة ولكـــن ليقـــتلن البـــرئ المغفـــلا

فقال لها عبيد الله: فإني آمل ألا يعذب الله صاحبة هذا الوجه في النار.

وقال سعيد بن المسيب، إذ بلغه ذلك: أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها: اغربي قبحك الله، لكنه ظرف عباد الحجاز.

ولما خرج محمد بن عبد الله سنة ١٤٥ قسا أبو جعفر على المدينة فضيق عليها الرزق وأغلق تجارتها من البحر، وبدأت رحلة الفن إلى مصادر النعمة في العاصمة، كما تطوف الفراشات بالنور، وعظم شأن الغناء عند الخلفاء فسمع الرشيد والمأمون وكانا من الصالحين.

* * *

ومن قبل عصر التابعين خرج رهط من الشبان مع عمر وفيهم رياح الفهري فقال الشبان له: احد. قال: مع عمر!! قالوا احد فإن نهاك فانته. فحدا ولم ينهه عمر. بل طرب لسماعه. فلما كانت ساعة السحر قال له. كف هذه ساعة الذكر. وفي الليلة التالية سألوه أن ينصب لهم نصب العرب. ففعل حتى كانت ساعة السحر، فقال له عمر: كف فهذه ساعة ذكر. وفي الليلة الثالثة سألوه أن يغني غناء القيان، فلم يكد يبدأ حتى صاح به عمر، كف فهذا ينفر القلوب.

وخرج عمر مرة للحج فاقترح من معه على خوات بن جبير أن يغنيهم من شعر ضرار، فقال عمر: بل ادعوا أبا عبد الله أن يغنيكم من بنيات فؤاده، وغنى خوات، وطرب عمر حتى إذا كان السحر قال: ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا.

وكان عمر شاعر النفس، في شعره التقوى، كتب لولاته يقول: مروا الناس أن يخرجوا إلى الصحارى في أيام الربيع فينظروا إلى آثار رحمة الله، كيف يحيي الأرض بعد موتها.

وتغنى عمر يوما وهو في ركب، فتغنى بحب النبي عليه السلام:

ومـا حملـت مـن ناقـة فـوق رحلهـا أبـر وأوفـى ذمـة مـن محمـد

فاجتمع الركب يستمعون، فلما رآهم اجتمعوا قرأ القرآن...

ورووا أن النبي عليه السلام رأى ركبا ولهم حاد يحدو بهم فقال: ممن القوم؟ فقالوا من مضر. فقال: ما لحاديكم؟ فقال رجل مهم: إن أول من حدا لنحن. قال وما ذاك؟ قال: كان رجل منا في إبله في الربيع، فأمر غلاما له ببعض أمره، فاستبطأه فضربه بالعصا، فجعل ينشد في الإبل ويقول: يا يداه، فقالوا له الزم، فاستفتح الناس الحداء منذ ذاك.

وروى البراء بن عازب أن النبي ان ينقل التراب يوم الأحزاب ويرتجز بكلمات ابن رواحة:

والله لـولا الله مـا اهتـدينا ولا تصـدقنا ولا صـلينا

فـأنزلن سـكينة علينـا وثبـت الأقـدام إن لاقينـا

إن الأولـى قـد بلغـوا علينـا إذا أرادوا فتنـة أبينـا

ثم يمد صوته "بكلمة" أبينا.

وحدا (أنجشة) بأمهات المؤمنين في حجة الوداع. وكان عبدا حسن الصوت، وأسرعت الإبل فقال عليه السلام: "رويدك يا أنجشة ورفقا بالقوارير".

مالك والغناء

في إطار ما أسلفنا، نتحدث عما نسب من الغناء إلى عمر بن عبد العزيز ومالك معه، وهما من أبناء المدينة، على لسان أبي العلاء المعري في رسالة الغفران، يلقي تبعته على ابن خرداذبه وكأنه يتخلص من عبء أثقله، فيقول: ".. ولعله قد نظر في طبقات المغنين فرأى فيهم عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس ما ذكر ابن خرداذبه، فإن كان كاذبا فعليه كذبه..".

والتاريخ يسلم أن أستاذ عمر بن عبد العزيز من فقهاء المدينة السبعة. عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الهذلي. قد صح عنه الشعر الجيد، وهو من بني هذيل قبيلة الشعراء الكبار، وقد قيل إنه جمع السبعة في منظومة تشيد بجمال هذلية قدمت المدينة فقال:

أحبك حبا لا يحبك مثله ... قريب ولا في العالمين بعيد

وحبك يا أم العلاء متيمي ... شهيدي "أبو بكر" فذاك شهيد

ويعلم وجدي "قاسم بن محمد" ... و"عروة" ما ألقى بكم و"سعيد"

ويعلم ما أخفى "سليمان" كله ... و"خارجة" يبدي بنا ويعيد

متى تسألي عما أقول وتخبري ... فللحب عندي طارف وتليد(٣١)

فلما بلغت الأبيات سعيد بن المسيب قال: والله لقد أمن أن تسألنا وعلم أنها لو استشهدت لم نشهد بالباطل عندها.

وكان لمالك أستاذ في الفقه كمثل أستاذ عمر، يقرض الشعر بل يصوغ الألحان ويتغنى، هو عروة بن أذينة، وقفت عليه سكينة بنت الحسين (١١٧) فقالت: أنت الذي يقال له الرجل الصالح وأنت تقول:

---

(٣١) الفقهاء السبعة: سعيد بن المسيب، سليمان بن يسار، القاسم بن محمد بن أبي بكر، عروة بن الزبير، أبو بكر بن الحارث، خارجة بن زيد – أما السابع فهو الشاعر.

إذا وجـــدت أوار الحـــب فـــي كبـــدي عمـــدت نحـــو ســـقاء القـــوم أبتـــرد

هبنـــي بـــردت ببـــرد المـــاء ظـــاهره فمـــن لنـــار علـــى الأحشـــاء تتقـــد

قال: نعم. قالت: وأنت القائل:

قالـــت: وأبثثتهـــا وجـــدي وبحـــت بـــه قـــد كنـــت عنـــدي تحـــب الســـتر فاســـتتر

ألســـت تبصـــر مـــن حـــولي فقلـــت لهـــا غطـــى هـــواك ومـــا ألقـــى علـــى بصـــري

قال: نعم. فالتفتت إلى جواركن حولها وقالت: هن حرائر إذا كان خرج هذا من قلب سليم قط.

ورثى عروة أخاه بكرا في شعر رفيع، فسألت سكينة عن بكر هذا فعرفوها فقالت: لقد طاب بعده كل شئ حتى الخبز والزيت. ردا على قوله فيه: "وأي العيش يصلح بعد بكر".

ولما غنيت الأبيات للخليفة الوليد بن يزيد قال للمغني: لمن الشعر؟ قال لعروة. فسخر الخليفة من بكر بقوله: وأي العيش يصلح بعد بكر! وقال: هذا العيش الذي نحن فيه. لقد – والله – تحجر واسعا.

وعروة فقيه ثبت، وشاعر غزل، روى عنه مالك في الموطأ، وإن رجع اشتهاره في تاريخ مالك إلى شعره وغنائه، وقد لحن عروة بعض الشعر مثل:

يـــا ديـــار الحـــي بالأجمـــه لـــم تبـــين دارهـــا كلمـــه

وروى صاحب الأغاني أن عروة قد ذكر أمام عمر بن عبد العزيز فقال: نعم الرجل الصالح أبو عامر، على أنه الذي يقول:

ولقد قالت لأتراب لها زهر تلاقينا[٣٢]

---

(٣٢) وفي ديوان الحماسة أروع القريض لعروة مثل:

إن التـــي زعمـــت فـــؤادك ملهـــا خلقـت هـواك كمـا خلقـت هـوى لهـا

بيضـــاء باكرهـــا النعـــيم فصـــاغها بلباقـــــة فأدقهـــــا وأجلهـــــا

حجبـــت تحيتهـــا فقلـــت لصـــاحبي مـــا كـــان أكثرهـــا لنـــا وأقلهـــا

وإذا وجـــدت لهـــا وســـاوس ســـلوة شـــفع الضـــمير إلـــى الفـــؤاد فســـلها

ودخل على هشام بن عبد الملك مع الشعراء فقال له: ألست القائل:

لقـد علمـت ومـا الإسـراف مـن خلقـي أن الـــذي هـــو رزقـــي ســـوف يـــأتيني

أســـعى إليـــه فيعيينـــي تطلبـــه ولـــو قعـــدت أتـــاني لا يعنينـــي

قال: نعم. قال لكنك أتيت إلى الشام في طلب الرزق، وما أراك فعلت كما قلت. قال عروة: لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالغت في الوعظ. وعمد من مخرجه إلى راحلته فركبها إلى المدينة. فلما كان الليل ذكر الخليفة الرجل فقال لنفسه: هذا رجل من قريش ذكر حكم فجبهته، وهو مع هذا شاعر لا يؤمن لسانه، فبعث إليه بألفي دينار، فأدركته وهو في بيته في المدينة فأخذ المال وقال لحامله: أبلغ أمير المؤمنين السلام، وقل له: كيف رأيت قولي: سعيت فأكديت، ورجعت إلى بيتي فأتاني فيه الرزق.

ترددت في تاريخ مالك – رواية تنسب إليه أنه قال: "نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وآخذ عنهم، فقالت لي أمي: يا بني إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه، فدع الغناء واطلب الفقه، فإنه لا يضر معه قبح الوجه. فتركت المغنين واتبعت الفقهاء، فبلغ بي الله عز وجل ما ترون". ولو صحت الرواية لكانت هوى من أهواء طفل يدق أبواب التعليم، لأن مالكا أقبل على العلم من طفولته، والشك فيها كبير لأن مالكا كان جميل الوجه صبوحه، فلا تصده أمه عن الغناء على هذا الوجه، فإن كان قصدها قبح وجه غيره، فإن هذه المجادلة لوجه جميل حجة معه ليقدم، لا حجة عليه ليحجم.

ويروون من نوادر مالك وملحه أنه مر بمغنية تغني:

أنـــت أختـــي ورحمـــة جـــاري وحقيـــق علـــي حفـــظ الجـــوار

أنـــا للجـــار مـــا تغيـــب عنـــي حـــافظ للمغيـــب فـــي الأســـرار

مـــا أبـــالي أكـــان للبـــاب ســـتر مســـبل أم بقـــى بغيـــر ســـتار

وأن مالكا قال: لو غنى بها حول الكعبة لجاز. أو قال: يا أهل الدار علموا قينتكم مثل هذا.

ويروون كذلك أن مالكا كان يمشي مع ابن أخته إسماعيل بن أويس فسمعا جارية تغني غزلا:

ليتنـــــي أرض لســـــلمى فتطـــــاني قـــــدماها

ليتنـــــي درع لســـــلمى ترتـــــديني مـــــن وراهـــــا

ليتنـــــي خـــــادم ســـــلمى قاعـــــد حيـــــث أراهـــــا

فسأله مالك: رجل أو امرأة؟ قال: قلت هي غزال خادم بني عمارة. قال إنها لفصيحة اللهجة حسنة التأدية.

وروى صاحب الأغاني قول القائل: كنت بالمدينة فخلا لي الطريق فجعلت أتغنى:

مـــا بـــال قومـــك يـــا ربـــاب خـــــزرا كـــــأنهمو غضـــــاب

فإذا خوخة قد فتحت وإذا وجه بدا تتبعه لحية حمراء فقال: يا فاسق أسأت التأدية ومنعت القائلة وأذعت الفاحشة. ثم اندفع يغنيه، فظننت أن طويسا قد نشر بعينه فقلت له: أصلحك الله من أين لك هذا الغناء؟ فحدثه مالك بقصة طلبه الغناء وهو صغير فقال له الراوي: فأعد جعلت فداءك. قال لا ولا كرامة. تريد أن تقول: أخذته عن مالك بن أنس؟

والذين يتكلمون في مالك والغناء يشيرون إلى أنه لم يذكر في الموطأ أثرا في تحريم الغناء مع أنه تحدث عن حرمة كثير من الأشياء مما يدل – عندهم – على أنه يجوزه أو لا يقاومه.

ويروي الخطيب البغدادي: أن بعض أصحاب الحديث أتى إبراهيم بن سعد[٣٣] ليسمع الحديث فسمعه يتغنى. فقال له: لقد كنت حريصا على أن أسمع منك أما الآن فلا سمعت منك حديثا أبدا. قال: إذن لا أفقد إلا شخصك. علي وعلي إن حدثت ببغداد ما حدثت حديثا حتى أغني قبله. وبلغت الحادثة الرشيد وكان قد قدم عليه سنة ١٨٤ وأظهر الرشيد بره، فدعا به فسأله عن حديث المخزومية التي قطعها النبي ﷺ في سرقة الحلي، فدعا بعود، فقال الرشيد: أعود المجمر؟ قال: لا، ولكن عود الطرب. فتبسم. قال إبراهيم: لعله بلغك يا أمير المؤمنين حديث السفيه الذي آذاني بالأمس وألجأني إلى أن حلفت؟ قال: نعم. فدعا الرشيد بعود فغناه:

---

(٣٣) إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف. استوطن بغداد وولي بها بيت المال للرشيد، وأبوه سعد بن إبراهيم (١٢٧) كان قاضيا على المدينة، ومحدثا ثقة، لم يرو عنه مالك، وفي تعليق في "الرسالة" للشافعي، ذكر الخلاف في سبب ذلك: قيل إنه وعظ مالكا فوجد عليه وقيل إنه تكلم في نسب مالك، ولا يذك رمالك فيمن روى عنهم إبراهيم مع أنه سمع ابن وهب والقعنبي تلميذي مالك – وقيل ولي إبراهيم القضاء بواسط. وقيل إنه مات سنة ١٨٣ أو ١٨٤ – عن ٧٥ عاما وقيل عن ٩٥ عاما.

وهو من رواة المغازي عن ابن إسحق، وابن إسحق محل طعن في المدينة من أعظم المحدثين بها في عصر: هشام بن عروة بن الزبير، ومالك، وكلاهما يقول صراحة: إنه كذاب. ويقول عنه ياقوت في معجم الأدباء "خرج من المدينة قديما فلم يرو عنه (من أهلها) غير إبراهيم بن سعد".

يـــا أم طلحـــة إن البـــين قـــد أفـــدا قـــل الثـــواء إذا كـــان الرحيـــل غـــدا

فقال الرشيد من كان من فقهائكم (فقهاء المدينة) يكره السماع؟ قال من ربطه الله. قال الرشيد: فهل بلغك عن مالك بن أنس في هذا شئ؟ قال لا والله. إلا أن أبي أخبرني أنهم اجتمعوا في مدعاة كانت في بني يربوع وهم يومئذ جلة، ومالك أقلهم في فقهه وقدره، ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنون ويلعبون، ومع مالك دف وهو يغنيهم:

سليمى أجمعت بيننا فأين لقاؤها أينا

ولقد قالت لأتراب لها زهر تلاقينا

تعالين فقد طاب لنا العيش تعالينا

فضحك الرشيد ووصله بمال عظيم.

ولو صحت الرواية أو صدقت الواقعة لكانت الرواية في آخر سنة من حياة إبراهيم، ووقعت الواقعة في أول حياة مالك. أي في عهد التلمذة، فهو عندئذ قد يكون أقل القوم في فقهه وقدره.

وأيا كان الأمر فإن مالكا قد عقد لنفسه حلقة في مسجد النبي وهو في نحو السابعة عشرة، وكان تحريم الغناء درسا من دروسه.

ولو وقع ما يلام عليه مالك لما سكت عنه النقدة الشداد من معاصرين أدنى إليهم أن يهاجموه من أن يهادنوه، مثل ابن أبي ذئب وابن إسحق.

والأول عنيف لا يهاب، يلوم مالكا لأنه شهد بما رآه ولم يشهد بما لم يره! عندما طلب أبو جعفر إليهما وإلى ابن أبي سبرة أن يحققوا شكوى قرشي حبسه عبد الصمد – أمير المدينة – حبسا ضيقا، ولما انتقلوا إلى السجن كان قد حل وثاقه وكنس المكان ورشه. فشهد مالك وابن أبي سبرة بما بصرت به عيناهما، وأحس ابن أبي ذئب أن هناك تغييرا للحال فقال مالك: داهنت وملت إلى الهوى اكتب رأيت محبسا ضيقا وأمرا شديدا، وابن أبي ذئب هو الذي يقول لأبي جعفر والسياف على رأسه، كما يروي الشافعي، أشهد أنك أخذت المال من غير حقه وجعلته في غير أهله، ويقول له أبو جعفر والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك.

وكان ابن إسحق (١٥١) يهاجم مالكا في صميم اختصاصه ويقول: أنا بيطار حديثه، وكان مالك يقول: "إنا نفيناه من المدينة"[٣٤]. والمدين تنفي خبثها.

ذلك، ومالك في فقهه ينهي عن الغناء ويراه عيبا ترد به الجارية المشتراة إن وجدت مغنية، والشافعي يراه مكروها، وأبو حنيفة يراه ذنبا، ولم يمتنع مع ذلك الغناء والسماع.

وابن حنبل يروي عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون تلميذ مالك بالمدينة – "قدم علينا ومعه من يغنيه". وبيت الماجشون بيت علم وورع. ففي صنيع عالمه دلالة على أن مجتمعات المدينة ترى سماع الغناء كالغناء لا جناح فيه، وإنما الجناح فيما يؤدي إليه الغناء، أو يقصد به أو يصحبه، من الفتنة، أو ما يؤدي إلى الفتنة، ومن أصول مالك سد الذرائع التي تؤدي إلى مفسدة.

ولقد سمع عبد الملك بن مروان – فقيه المدينة – الغناء، لكنه لم يقبل أن يفسد الغناء الفتيان، إذ قيل له أن ابن مسحج أفسد فتيان قريش وأنفقوا عليه أموالهم فكتب إلى عامله أن اقبض ماله وسيره.

ونهى النبي أن يدخل المخنثون على النساء، والتخنث عيب من كل وجه. فما بالك بالغناء الذي يفسد النفس؟ والقول والفعل قد يصطبغان بألوان الزمان والمكان، ويزيد اللون حدة وشدة أن يطرد لرجل واحد. قالوا إن صالح بن حسان المدني (في القرن الثاني) كان سريا يملأ المجلس إذا تحدث، وكان يحدث عن محمد بن كعب القرظي وغيره، وكان عنده جوار مغنيات فهن وضعنه عند الناس.

* * *

كان الغناء وسماعه عرف العصر، وسيبقى حاجة للنفس، يكمل لها أسباب الحياة، ولا يقدح فيه ابتذال المغنين أو السامعين، فالمبتذلون هم المقبوحون.

لقد كانت عنان الناطفية تستفتح مجالسها للغناء بتلاوة القرآن أيام الرشيد أما أخوه إبراهيم فقد ألقت به الثورة عامين على كرسي الخلافة وكان مغنيا عبقريا وله من الكتب كتاب "الغناء" وأما ابنه المأمون، فكان حقا فيلسوف الخلافة عشرين عاما (١٩٨ – ٢١٨) يحدث عشرات

---

(٣٤) كان ابن إسحق يتكلم في نسب مالك أن ولاء مالك لبني تيم ليس ولاء النظراء.

الأحاديث في المجلس الواحد وله مجلس خاص للفقه والسنن والأدب، نادى حينا بجواز المتعة، فرووا له حديث الزهري بتحريمها فسأل الأشهاد: أمحفوظ هذا من حديث الزهري؟ فلما قالوا نعم، رواه جماعة منهم مالك – ومالك شيخه – قال: أستغفر الله. نادوا بتحريم المتعة فنادوا.

وكان يهوى الغناء، ويغدق عليه بغير حساب(٣٥).

ولئن كان عمر بن عبد العزيز قد تغنى لنفسه في الصبا، أيام كان يجر إزاره خيلاء، أو كان عروة بن أذينة قد لحن ألحانا، فإن مالكا وجد من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والخلفاء والفقهاء من يستمعون، فهذا عرف وجد عليه مجتمع المدينة، لكنه حذر من أن يتخذ وسيلة لنفاق القلوب عندما سئل عنه فأجاب: إنه يصنعه بالمدينة الفساق.

---

(٣٥) سأله إسحق الموصلي أن يكون دخوله عليه مع أهل العلم والأدب الرواة لا مع المغنين فأذن له، ثم طلب إليه أن يأذن له في الدخول مع الفقهاء فأذن.

قالوا: وإن جماعة من المغنين لجلوس في حجرة لهم ذات يوم، ينتظرون خروج الناس من عند المأمون وجلوسه إليهم إذ دخل عليهم يحيى بن أكثم قاضي القضاة، وكان من عباقرة عصره، ويده في يد إسحق يماشيه حتى جلس معه بين يدي المأمون، فكاد علوية المغني أن يجن! ثم مضت مدة فسأل إسحق المأمون أن يأذن له في لبس السواد يوم الجمعة وأن يجلس معه في المقصورة فضحك المأمون وقال: ولا كل ذا يا إسحق، ولقد اشتريت منك هذه المسألة بمائة ألف درهم وأمر له بها.

وكان إسحق في عهد الواثق يماشي أحمد بن أبي دؤاد في البلاط في زيه، وقلنسوته مثل قلنسوته، حتى يقول علوية: يا هؤلاء: خيناكر (مغن أو مضحك بالفارسية) يدخل مع قاضي القضاة! فيجيبه مغن آخر هو مخارق، دع عنك هذا فقد والله بلغ ما أراد.

وابن أبي دؤاد هو الشديد العصب للعلم والدين كما يفهمه المعتزلة... وهو الذي دبر ضرب أحمد بن حنبل في محاكمته من أجل خلق القرآن.

وإسحق الموصلي (١٥٠ – ٢٣٥) هو ابن إبراهيم الموصلي وكان إبراهيم في عهد المهدي والرشيد إذا غنى وضرب له زلزل – وزوجته أخت زلزل – اهتز له المجلس.

وكانت لإسحق معرفة راسخة باللغة والأشعار وأيام الناس والحديث والفقه والكلام.

قال إسحق يوما ليحيى بن أكثم: ما بالي أقوم بسائر العلوم قيام أهلها وأنسب إلى فن واحد قد اقتصر الناس عليه، فجعل القاضي الجواب إلى العطوي الشاعر فقال: هل أنت كالفراء والأخفش في النحو؟ قال لا، قال: أفأنت في اللغة كالأصمعي وأبي عبيدة؟ قال لا، قال: أفأنت في الكلام كابن عبيد والنظام؟ قال لا، قال أفأنت في الفقه كالقاضي، قال لا، قال فمن ها هنا نسبت إلى ما نسبت إليه لأنك لا نظير لك فيه.

وكان المعتصم يقول: ما غناني إسحق قط إلا خيل إلي أنه قد زيد في ملكي.

ومن الصحيح أن الابتذال في كل أمر منقصة، وأن من يتخصص في جمع الرخص واتخاذها دينا يتدنى بها إلى الشر. قال سليمان التيمي: "إن أخذت برخص كل عالم اجتمع فيك الشر كله"، ومن غلا في الاحتياط علا بسد الذريعة.

فشعر الغواية منهي عنه – والبعض يتشدد فيرى من الشر إنشاد كل شعر! قال المعتمد بن سليمان: "رآني أبي وأنا أنشد الشعر قال لا تنشد الشعر فقلت له: يا أبت كان الحسن ينشد الشعر وكان ابن سيرين ينشد الشعر. فقال: أي بني. إن أخذت بشر ما في الحسن وشر ما في ابن سيرين اجتمع فيك الشر كله" مع أن جابر بن سمرة يقول: "جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون من أمور الجاهلية، وهو ساكت، وربما تبسم معهم".

لكنه عليه السلام أعرض عن سماع غناء جاريتين عند عائشة كانتا تغنيان غناء بعاث، فاضطجع على فراشه وحول وجهه وهو يقول: "لست من دد ولا دد مني ولست من الباطل ولا الباطل مني". والدد اللهو واللعب.

ومقامه عليه الصلاة والسلام ليس كمقام الناس فهو يصنع ما يليق بمقامه حتى ليقسم بين زوجاته بعدل النبي ثم يقول: "اللهم هذا عملي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك" يقصد ميل القلب إلى البعض دون البعض، فذلك فعل الرسول، أما فعل الناس فقد فعلته أم المؤمنين إذ سمعت غناء بعاث[٣٦].

---

(٣٦) يقول الله جل ثناؤه في سورة لقمان:

(ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزؤا. أولئك هم عذاب مهين).

واشتهر أن الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه كان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول "أطعميه واسقيه وغنيه" ويقول هذا خير مما يدعوك إليه محمد!!

قال المفسرون إن لهو الحديث هو كل ما شغلك عن العبادة من السمر والأضاحيك والخرافات والغناء. وقيل إن لهو الحديث هو الشرك وقيل يفسر بكل ذلك. وعن ابن عباس أنه قال: لهو الحديث هو الغناء وأشباهه وقال مكحول: إنهن الجواري الضاربات وعن ابن مسعود: "هو رجل يشتري جارية تغنيه ليلا ونهارا".

فإن كانت الآية نزلت في النضر. فهذا رجل يصد عن الإسلام وعمله عمل كافر، بما فيه الإطعام والسقيا، وغناء الجارية. أمكن الله المسلمين منه يوم بدر فقتله علي بأمر النبي عليه السلام.

وظاهر النص لا يفيد التحريم على القطع لفن الغناء.

وإذا كان المقصود السمر والأضاحيك والخرافات فمؤداه تحريم غرضها من الإضلال عن سبيل الله.

.....

ولذلك يفهم تفسير اللهو بالغرض الذي اشتريت له كما صنع النضر.

ويفهم تفسير ابن مسعود بالانقطاع ليلا ونهارا مما يشغل عن ذكر الله سبحانه.

وتفسير مكحول عن الجواري الضاربات لا يجعل الضرب وحده حراما إذا قام به رجل وإنما الحرام ضرب الجارية إذا أحاط به الباطل، كالمجال الذي يستعمل فيه، أو الغرض الذي يسخر له، ومن الباطل عمل جارية النضر أو انقطاع الرجل لجاريته تغنيه ليلا ونهارا. فهذه مفسدة.

يقول ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل ويقول الضحاك: "الغناء منفدة للمال، مسخطة للرب، مفسدة للقلب"... فيخرج ما لا يستنفد المال ولا يسخط الرب أو ما يصلح القلب. مثلما ورد في الدر المختار من أن "التغني لنفسه لدفع الوحشة، لا بأس به عند العامة". ومثل ما أجيز من الغناء في العرس، كمثل ما أجيز ضرب الدف فيه، ومنهم من أباحه مطلقا.

والفارابي – المعلم الثاني أضحك بموسيقاه وأبكى، وأقام بها سامعي البلاط – ومضى وهم نيام!!

والكندي فيلسوف العرب – كان عالما بالموسيقى. والرازي قبل أن يصبح طبيب العصور الوسطى كلها كان موسيقيا، والموسيقى والغناء صنوان.

وكان أبو حنيفة يكره الغناء ويجعله من الذنوب، وكذلك كان رأي أئمة الكوفة الثوري والشعبي وحماد.

ولما سأل عبد الله بن أحمد أباه الإمام أحمد بن حنبل قال: ينبت النفاق في القلب، ثم ذكر عبارة مالك: إنما يفعله عندنا الفساق، فربط بين عمل الفساق وإنبات النفاق وبين الجواب.

والقرطبي يذكر عن مالك رده علي بن المبارك "من جلس إلى قينة يسمع منها صب في أذنه الآنك يوم القيامة".

فهنا الجلوس – ومنه الانقطاع – والقينة والسماع. أمور ثلاثة.

أما الشافعي فيراه لهوا مكروها يشبه الباطل والمحال، من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته.

كل أولئك ومن الغناء والسماع ما لا باس به – بيقين – كأغاني القوة والفتوة، وسماع ما بعد من الابتذال وسلم من الشهوة فإذا اقتصرت الحرمة أو الكراهية على ما يؤدي إلى مفسدة ونفاق فذلك سد الذريعة.